

في سياستنا الخارجية بعد الوثبة

يبدو أن حقيقة الوعي الشعبي ما تزال موضع شك في نظر بعض المفكرين من ساسة العرب ، وأعلم أن تكون موضع شك في نظر بعض المفكرين من مراقبي السياسة في هذا الشرق كله ، ذلك لأن هؤلاء المفكرين ينظرون إلى هذه الحركات الوائبة هنا وهناك على أنها حركات انفرادية لا يربط الواحد منها بالآخرى نظام موحد ، ولا ينتظم قيادتها جامع يديرها ويدبرها ويرعى ظروفها المناسبة للقيام حين يعوز الأمر القيام أو القعود حين تقتضي المصلحة القعود !

وعلى ذلك يرى هؤلاء أن هذه الحركات قوى موزعة ، فمهما عظمت لا تصلح أن تكون مصدراً للإبداع والتفوق فيما ترمي إليه

من الوثوب الى العدل والأخذ بالحركات الكاملة ، إذ انها لا تعدو - كما يقولون - أن تكون أصفاراً على الشمال ، ولن تنتج الأصفار بالبداية مهما عظم عددها غير الصفر في النهاية .

ولكن الواقع في هذه النظرية انها مغموسة بذائب من التشاؤم المظلم لأنها لا تحاول أو لا تريد أن تحاول الالتفات الى هذه البشائر التي سجلتها الشعوب الصغيرة في كفاحها الأخير وسجلت ، لأنفسها خلال هذا الكفاح انتصارات عجيبة لو تحدث بها الراصدون لعددها المتشائمون ضرباً من الجنون .

والأمر الذي لا شك فيه ولا جدال أن تملل الشعوب الصغيرة الطويل وضيقها الشديد بالطبقات الحاكمة المستأثرة قد أرفه نوعاً من الشعور الحساس الثائر ، وان هذا الشعور الحساس الثائر الذي أرفهه التملل الطويل والضيق الشديد قد بلغ من القوة حيث يستطيع التملص والاباء في كل مكان من هذا الشرق على كل حاكم يكلفه الخضوع لمستعمر ، أو يروضه على الهوان والاستخذاء لفاتح .

وهذا ما نسميه (بالوعي) ، ونرجو أن يكون (جامعاً) ينبثق منه النظام الموحد الذي يدير حركاتنا المتلاقية بالاغراض والاهداف في كل قطر يشار كنا بما نحس به ونصبو اليه ، وبهذا تتساوى وتنشأ الوثبة الشرقية ، فتتحصن بذلك من عدوان المستعمر ، وتتعب قواه حتى لا تغني عنه شيئاً .

ولماذا نذهب الى بعيد في ضرب الامثلة لهذه الحقيقة من أمرنا الراهن ، فهذه حركاتنا الشعبية في العراق لقحت في اسبوعها

الاول نتاجاً طيباً أثمر إثارةً عجيبةً ساحراً ، ولا أعني سقوط
الوزارة السابقة ، ونهوض الوزارة الحاضرة فذلك أيسر ما جنته
هذه الحركة المباركة ، ولكنني أعني ما استلزمته حركتنا من الصلابة
في الاقطار العربية جمعاء فاذا معاهدة شرق الاردن ترجع على أعقابها ،
واذا عزيمة مصر على رفض المعاهدة تضرى وتشتد ، واذا اتفاقية
النقد في سورية تفصم بلطمة بارك الله بعكف لاطمها ، ثم - اذا
هي آخر الامر - مثل حي 'تود' على غرارهِ المشاريع الاستعمارية
الواحد تنو الآخر متساقطاً على نفسه من الحيرة والذهول .
ولو قدر لمعاهدة (بورتسموث) ان تمضي في طريقها بأمان
لتتابعت - اذن - خلفها تلك المشاريع كلها في هذا الطريق
بأمان كذلك .

أليس معنى هذا ان (الوعي) ارتقى الى حيث يجب الاعتراف
به ؟ أكان ممكناً أن تؤثر حركتنا هذه التأثير السريع لو أنها عمل
افرادي غير موصول بالقدر المشترك من الوثبة العربية ؟
أنا - على الأقل - أؤمن أن قوى الشعب لم تعد (أصفاراً) ،
بل أصبح وراء أصفارها كثير من الأرقام التي تحولنا أن نقول
المستعمرين : قفوا مكانكم ! وأن نقول لصنائعهم : تنحسوا
عن الطريق !

وجدد بالنفابات من حماة المصالح الاستعمارية في شرقنا العربي
أن يندحروا بعد اليوم الى النهاية ، فقد انتبه هذا الشرق العزيز من
رقده التي انسلوا تحت ستارها ليكونوا عوامل فساد وأسواط
إرهاب بأيدي الأجانب يلهبون بهم ظهورنا بقسوة في جانب من

خطتهم ، ويبخرون باستهتارهم أخلاقنا في الجانب الآخر .
غير ان الأمر - كما يبدو لي - كُبرَ عن ذلك بعد أن (شب
عمرو عن الطوق) واستوى على قدميه ، فراقه قده واعتداله ،
وأعجبه اعتباله وجماله ، وساعدته على استجلاء (ذاته) في حقيقتها
من الفتوة المرأة الكونية من هذا التطور السريع الذي قلب
المفاهيم بعد الحرب رأساً على عقب .

فنحن - اذن - واعون .

وهذا الوعي الذي نتحدث عنه هو الوسيلة المرجوة دون
غيرها من وسائل القوة على اقتحام مطلبنا الشاق . وغني
عن البيان ان من ضرورات النفاذ والتأثير في هذا الوعي شموله
هذا الذي بدأت تبشيره تستعلن على نحو ما أوضحناه قبل قليل
من السطور .

ونحن حين نعود الى هذه الازمات المستحكمة في أقطارنا الآن
نجد الاول والاخير فيها إنما هو التنازع الشديد بين معسكري
الروس والانجليز أمريكان الطامع كل منهما الى السيطرة على موارد
الشرق واستغلال ثرواته من ناحية ، والى السيطرة عليه كقوة
عالمية من شأنها ان ترجع بالكفة التي تكون في جانبها من
ناحية أخرى .

هذا ما حدا بالانكليز في أعقاب الحرب المنصرمة الى العناية
بجيازة الشرق الى صفها بحرص شديد أشغل وزارة خارجيتها سنين
طوالا بوضع التصاميم المختلفة لضمان استيلائها عليه ، غير انها فوجئت
بمجزر ويقظة بالغين أفسدا عليها خططها جميعاً .

ولن أنسب الى نشاط الروس شيئاً من إفساد هذه الخطط ،
لأن في هذه للنسبة غفلة غير مشرفة ليقظتنا التي استقلت وحدها
بإفساد هذه الخطط بدليل أننا صارحنا الانكليز أكثر من مرة باننا
وفينا لها مرات عديدة في محنها فقابلت وفاءنا بالاستهتار واللامبالاة ،
وانما تجني الآن ثمر ذلك الخلق الذي طبعت عليه سياستها الخادعة .
وبما نشير اليه من خططهم التي اصطنعها لضمان الشرق انها
بدأت قبل سنين لعلها اربع باثارة النزعات الطائفية في الشرق ،
وحاولت من أجل ذلك ان تربط بين مسلمي الهند وجامع الازهر
ومكة باتفاقيات باسم الاسلام ، ثم تملي لهذه الرابطة ولخصومها الذين
حاولت ان تثيروهم باسم الدين ايضاً لتم لها من وراء ذلك السيطرة
التي تعودت ان تبنيها على دماء الاخوان والمواطنين براحة ويسر .
ولكن الذي تم لها في الهند لم يتم لها في البلاد العربية .

ثم عادت بعد هذا التصميم الى تصميم آخر لم يكتب له النجاح
وفق ارادتها من قبل ، وهو اخضاع الجامعة العربية من جديد وربطها
بدول ميثاق سعد آباد الذي وجهته ان يكون حصنها من الروس
وجندها في الحرب العالمية المقبلة . غير ان هذا التصميم كان ناقصاً
ولن يتمه غير معاهداتها المنفردة مع البلاد العربية ، بالإضافة الى
اتفاقات تربط دول الشرق في ظل معاهداتها .

وهكذا بدأت في تنفيذ هذا التصميم اللئيم . غير أن مصر المجاهدة
نجحت في هذا التصميم وجاوتها فيه بمحاولة حرة تليق بنهضة الشرق
الحديثة ، وتنبه الشعوب الى ما يجدر بهذه النهضة من التدليل على
وجود الوعي للحارم .

ومن الغريب انها تركت مصر محاصرةً واقبلت على العراق
بمعاهدة بورتسموث لتشق بها الطريق في حركة التفافية غيبة إلى
مصر وإلى غيرها من اقطارنا ، على اعتبار انها النموذج الذي تضع
على قاعدته سلسلة المعاهدات المطلوبة .

على هذا النحو تسلسلت الفكرة في ذهنية الانكليز ... أما
ختامها فهو ما تعلمون ، هو الوثبة التي غيرت معنى الحياة حتى في
نظر الانكليز السادرين ، وافهمتهم ان اعتماد القبضة القليلة بمن انشأوهم
كان خطأ في الحساب الاستعماري الملقى المنسوخ بحكم التطورات
الصاعدة .

ومن يقرأ خطاب بينفن بعد الوثبة ويتتبع تعليقات الصحف
البريطانية يخيل اليه ان القوم ، الى قناعتهم بخطأهم ، نادمون على ما
فرطوا ، ويظهر له ان سياستهم تنجده في طريق جديد . وإذا اعطينا
تأخر السفير البريطاني الجديد بطريقه الى العراق في مصر حقه من
الملاحظة استطعنا ان نلقي بعض الضوء على احتمال تبدل الاتجاه في
سياسة الانكليز بعد رفض معاهدة « بورتسموث » ، ذلك لانه -
كما قبل - تأخر ليستوحي الحطة الجديدة بعد إعلان رفض المعاهدة
الذي يجب ان يقنع الانكليز بخطأهم ، ولا سيما بعد فشل مشاريعهم
منذ سنين أربع على الأقل .

والكني أنا ما زلت اشك بان هناك تغيراً اساسياً في هذه السياسة .
ودليلي على ذلك ان الانكليز ما زالوا حتى الآن مهتمين بتكثيل
دول الشرق . ولا مانع من هذا التكثيل لو جاء طبيعياً مباشراً بين
هذه الدول دون تدخل الانكليز لان اهتمامهم به بعد الفشل المطرد

بصورة خاصة امر لا نتقبله بارتياح ، لانه يدلنا على خبء عودنا كل شر فيما مضى من عهدنا المظلمة .

وبما يرتبط بهذا الموضوع ما تتناقله البرقيات ، ويتحدث به المراسلون من مسألة عقد معاهدة مع الجامعة العربية رأساً ، حتى لقد أشغلت هذه الرواية الاندية السياسية .

وإذا صحت فلن يكون لها اثر غير تفرق « العشاق » عن هذه « الجامعة » التي ما زالت موضعاً للشبهات . ولن يكون للمعاهدة التي تعقد معها من القيمة اكثر من قيمة التعاقد مع أفراد لا وزن لهم الآن في مقاييس التأثير .. وبعبارة اصرح لن يكون لهذه المعاهدة قيمة اكبر من معاهدة تربط مع « فخامة السعيد ومعالي عزام » ومن بحكمها « من الحكم للعرب » .

ومن الغريب أن إحدى الصحف المحلية روت عن فخامة الباجه جي يومئذ الميل إلى صحة عقد مثل هذه المعاهدة ، ومن شأنها ان تلغي صفة كل بلد الخاصة وإسقاط رأيه في السياسة الخارجية . ولا ندري مبلغ هذه الرواية من الصحة ، ولكنها ان صحت فانا نعارض هذا الرأي وندعو فخامة الباجه جي^١ الى تبديل رأيه في هذا الموضوع إلا ان يكون رأيه هذا رأياً شخصياً يتركه في السيادة كلما دخل إلى مكتبه في وزارة الخارجية .

على اننا نعلم ان هذا الرأي لا يمثل وزارة « الصدر » لانه لا يلائم روح الحكومة التي رفضت معاهدة « بورتسموث » .

(١) ناقشنا الرحوم الباجه جي بهذا قبل وفاته وكان كلامنا موجهاً الىه باعتباره وزيراً للخارجية . وعليه فكل وزير بعده يناله هذا الحكم .

بقي علينا ان نعرض بعد هذا الاستقصاء لاهم ما يتوجب على هذه النواحي من موقفنا الراهن ، وهو طبيعة العلاقة التي تربطنا الان بالانكليز على ضوء كل ما مر .

وطالما تشوف الناس بعد رفض معاهدة (بورتسموث) الى الخطوة التي تليها ، وطالما ضجت الاندية بالبحث عن صفة معاهدة سنة ١٩٣٠ الفعلية . اما الخطوة التالية لرفض المعاهدة المدحورة فنؤجل الكلام عليها إلى الخاتمة .

وأما صفة معاهدة الثلاثين فقد سبق ان أعلننا فيها الرأي غير مرة ، وقلنا إن بطلانها كان من اكبر الدواعي لعقد معاهدة جديدة تستمد صحتها من تعاقد جديد بعد التطور العالمي الذي ابطل تلك . ولا يشك فقهاء القانون ان البدء بمفاوضة جديدة اعتراف من المتفاوضين جميعاً بانتهاء موضوعها ومرور زمانها ، هذا مضافاً الى ظروف الاكراه التي اكتنفت عقدها يومذاك . ويضاف الى هذا كله ميثاق هيئة الامم المتحدة الذي نسخها ونسخ امثالها في كل البلدان الممتحنة بامثالها .

وبما يؤيد هذه الحقيقة الناصعة ان الانكليز الان حريصون على استجداء اعتراف منا بنفاذها بعد رفض معاهدتهم الجديدة . وعلى هذا الاعتبار فنحن الان في حلٍ فقهاً - من أية معاهدة مع الانكليز . وهنا موضع الكلام عن (الخطوة التالية) ، وهي العقدة المتأزمة التي ينبغي أن توجه إلى حلها أكثر ما نستطيع من مرونة وكياسة في حذر وبقظة . أما الحكومة وهي المسؤولة عن تعيين هذه الخطوة فلم تبرم حتى الان أمراً فيها ، بالرغم مما قيل ويقال

عما في حقبة السفير الجديد . ولعل الحكومة غير مطمئنة إلى الآن إلى ما سيحدث، وإن كانت معتصمة برأيها الشعبي، ماضية بصلاية فيما ترتأيه من مصلحة البلاد بالرغم مما تستقبله من مشاق ، وبما يعترضها من صخور في مبدائها الواقعي الذي ينكشف لها عما لا ينكشف لنا . وأما نحن فانتا لنصرّ على أن تكون علاقاتنا بالإنكليز متأثرة بالتطور الحديث ، ملائمة لمواثيق السلم ومنظّماته العالمية ، دون اللجوء إلى الخداع والمحاولة والتلون ، لنفرغ من ذلك إلى إنشاء هذا الوطن جديداً يتلاقى في ممارسته حقوقه العدلان السياسي والاجتماعي .

نقول هذا مقدرين موقف الحكومة الشاق في هذه المرحلة التي تعتبر أدقّ مرحلة يجتازها العراق .

ونحن في نفس الوقت ندعو الكتاب إلى فسخ المجال أمام الحكومة تتمتع بصلاحياتها في الواجب الذي القيناه على عاتقها . فان لم تنهض بالمهمة كان لنا فيها رأي ، وكان لنا معها موقف ان أخرجتنا إليه .